الإعلام ودوره في التحولات السياسية الحركة التومرتية نموذجا

الدكتور: بسام العلوش
كلية الآداب – جامعة البعث

ملخص البحث

يؤثر الإعلام في حركة المجتمع، وحركة الإنسان داخل المجتمع، وللأهمية البالغة التي يحتلها الإعلام في شتى مجالات الحياة، كان لابد من تبيان دور الإعلام المزيّف والملفّق، في ذهنيات المجتمع وسلوكياته.

تعد الحركة التومرتية التي قادها محمد بن تومرت "المهدي"، من أشد الحركات الدينية ذكاء، نظراً لما اكتست به من طابع العصبية القبلية، وتسترت بوشاح الدّين، في إطار تزييف الحقائق وأدلجتها وفق ما تقتضيه المصلحة السياسية، فلم يتورع ابن تومرت باستخدام أي لغة

مبتذلة أو خطاب مسموم، مادام هدفه توسعة الذّات المتورمة التي تصور أنه زعيم شعبي، ومن ثم إمام ونبي.

كلمات مفتاحية:

الإمـام – الإعـلام – الدعائيـة – البلطجـة الإعلاميـة – تشـويه الحقـائق – الإذاعات...

Abstract

The media affects the movement of society and the human movement within society, and due to the great importance that the media occupies in various areas of life, it was necessary to clarify the role of the fake and fabricated media in the mentalities and behaviors of society.

The Tumart movement led by Muhammad bin Tumart "Al-Mahdi" is considered one of the most intelligent religious movements, given the nature of tribal fanaticism, and disguised itself with the mantle of religion, in the context of falsifying and ideologizing the facts as required by the political interest. Ibn Tumart did not hesitate to use any vulgar language. Or a poisoned speech, as long as its goal is to expand the swollen self that depicts

him as a popular leader, and then an imam and a prophet.

هدف البحث:

يهدف البحث إلى رصد العلاقة بين الإعلام وعامة المجتمع ودوره الحقيقي في أوقات الرخاء والأزمات كونه يشكل ركيزة أساسية لحركة الإنسان داخل المجتمع. ورصد الحركات التاريخية القائمة على تزييف الحقائق، وتلفيق الأكاذيب، وفبركة النصوص للوصول إلى غايتها بغض النظر عن المصداقية.

منهج البحث:

تم الاعتماد على المنهج الوصفي الاستقرائي الاستنتاجي، وذلك من خلال تحليل النصوص التاريخية للحصول ما أمكن على معطيات مادية بشقيها الزماني والمكاني، لتبيان دور التزييف والكذب الإعلامي وآثارها السلبية في حركة المجتمع، والتحولات السياسية

إشكالية البحث:

كيف يتحول الإعلام من دوره التثقيفي الهادف إلى تبيان الحقائق وإيصالها للجمهور، إلى دور سلبي متراجع؟

هل يمكن القول إن الحركات التاريخية اتخذت من الإعلام وسيلة لقلب الأنظمة الحاكمة؟

ما هو دور المؤسسات الحكومية في وقف الإعلام المأدلج، القائم على فبركة الأحداث وتأويلها وفق المصلحة الشخصية؟

مقدمة:

يشكل الإعلام بوسائله وأدواته المختلفة أداة لا يمكن الاستغناء عنها للدول والشعوب، سواء في أوقات الرخاء، أو الأزمات، فالإعلام بطبيعته يوثر في حركة المجتمع، وحركة الإنسان داخل المجتمع، وللأهمية البالغة التي يحتلها الإعلام في وقتنا الحالي، وازدياد أهمية ومكانة وسائل الإعلام في شتى مجالات الحياة الإنسانية، كان لابد من تبيان دور الإعلام المزيف والملفق في عقول العوام، وأثره السلبي في تقويض الدول والمجتمعات وتهديمها، ولعل هذا مادعا بول يوزف غوبازوزير الإعلام النازي لقول: "أعطني إعلاماً بلا ضمير أعطيك سعباً بلا وعي".

ولكون الأحداث التاريخية تذخر بتلك المعطيات مع الفارق في وسائل الاتصال وتكنلوجيا الإعلام، فقد أَلِفَ الباحث تسليط الضوء على الوسائل الإعلامية التي اتبعتها الحركة التومرتية لإحداث تحول سياسي ساهم في قلب نظام أول تجربة وحدوية بين المشرق والمغرب خلال القرنين 5-6هـ/11-12م، إضافة إلى تبني نظام اجتماعي جديد.

يمثل الإسلام منذ ظهوره أفقاً إيديولوجيا لجميع المطالب الاجتماعية، أياً كانت أشكالها واختلافاتها، وإن المتتبع للنصوص التاريخية يلحظ وبجدارة

ظهور العديد من الدول المكتسية بطابع العصبية القبلية، والمتسترة بوشاح الدين، في إطار تزييف الحقائق وأدلجتها وفق ما تقتضيه المصلحة السياسية، ولعل دعوة محمد ابن تومرت "المهدي"، إلا ضرباً لتلك الدعوات التي أسفرت عن أفول وإظهار دول.

بداية يجدر التنويه أن الباحث ليس في إطار الحديث عن تأصيل تاريخي للدعوة التومرتية، أو انهيار الدولة المرابطية، بقدر الحديث عن الخطوات والوسائل الدعائية لمؤسس الدولة الموحدية، وصاحب الحركة التومرتية.

كما يسعى البحث إلى توضيح الفرق الشاسع في مفهوم التاريخ عند المفكرين المحترفين المعاصرين في البلدان المتقدمة، حيث ليس التاريخ عندهم مجموع الأحداث التي وقعت في الماضي، ويرويها المؤرخ كما وصلت إليه، وإنما التاريخ عندهم رؤية تركيبية تعتمد على تحويل أحداث الماضي إلى اسقاطات على الواقع الراهن عبر عملية استنتاجية لاتقف عند حدود الملاحظة كما هو الحال عند النظرة التقليدية للتاريخ التي لا تعطي أهمية للمؤرخ ولا للحاضر، وتنتقل مباشرة من الماضي إلى المستقبل عن طريق رواية حكايات تحكي ما مضى وما سيحدث في المستقبل 1.

وضع محمد ابن تومرت الصنهاجي، وليد الثلث الأخير من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، أسساً فكرية دعائية لدعوته محاولاً إنشاء

[1] - عبدالله العروي: مفهوم التاريخ الألفاظ والمذاهب المفاهيم والأصول، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2005م ط4، ص 30-45.

دولته الجديدة، ليطلق على دعوته "دعوة الموحدين"، والتسمية بحد ذاتها تشي بدعائية مقيتة أراد صاحبها إظهار نفسه، وأصحابه، أنهم العارفين بالله، وبالتالي إصباغ الشرعية الدينية، وإظهار الدولة المرابطية بالكفرة المجسمين [2]، وهذا ايهام إعلامي مغلف أراد منه صاحبه حشد الأزيد من الأنصار والأتباع، وتعبئة الرأي العام ضدة دولة المرابطين.

نسب ابن تومرت:

يجد القارئ نفسه أمام إشكالية بين صحة وزيف النسب، فقد ادعى ابن تومرت النسب القرشي الهاشمي، وهذا ما أقره بعض المؤرخين [3]، في الوقت الذي ادعى البعض الآخر بزيف وبطلان النسب القرشي ، وأن أصله من قبائل هرغة البربرية [4]. وأن ادعاء ابن تومرت لنسب الرسول صلى الله

[2] - المجسمون: هي مصطلح إسلامي يطلق على من يقول بأن الله جسم، أو من يشبه الله بالمخلوقات. وكان المرابطون يثبتون لله تعالى صفات كما لبشرلكن محمد بن تومرت أخذ فكر المعتزلة في نفي الصفات البشرية عن الله تعالى، وادعى أن الأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين ومن معه من العلماء والولاة ومن يعمل تحت حكمهمومن يرضى بحكمهم هم من الكافرين. حول ذلك أنظر: البيذق: المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق: عبدالوهاب بن منصور،دار المنصور، الرباط، 1971م ص 12، ابن القطان "نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان"، تحقيق: محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1990، ص 15-40.

[3] - البيذق: المقتبس ، ص 34. الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، طبعة تونس، المكتبة العتيقة ، ط1، 1266 هـ ص 151. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية 1988م، ج6، ص226

[4] - ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط. 1972،ص 172، ابن عذارى:

عليه وسلم ما هو إلا شعار ونحلة باطلة لتعبئة الرأي العام بنسبه إلى آل البيت [5]، ولعل ما يثبت هذا الزعم أن معظم المؤرخين الذين أثبتوا نسبه لآل البيت هم من تلاميذه، أو من مؤرخي الدولة الموحدية الذين سجلوا تاريخها بوحي من حكامها، وبتأثير من نزعتهم العقدية.

يبدأ مشوار ابن تومرت الدعائي وتفكيره السياسي منذ رحلته القرطبية سنة 501هـ/1116م، قاصداً حاضرة العلم والمعرفة "قرطبة" ليتتلمذ على يد عدد من علمائها النابهين أمثال القاضي ابن حمدين، وليكون شاهداً على حادثة مفصلية في مجال العلوم العقلية، ربما كانت سبباً رئيسياً في تكوين مستقبل ابن تومرت، وذلك إثر ثورة رجال الدين على كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، إذ أقنع العلماء يرأسهم القاضي ابن حمدين، الأمير المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين، باستصدار فتوى بحرق الكتاب في ميدان قرطبة بحجة عدم صحته، ولعل هذا ما أثار صدمة لدى ابن تومرت، فهذا الشاب الذي كان مدفوعاً بحماسة مؤمناً بانفتاح علماء الأندلس للارتقاء بالعقل البشري؛ يفاجئ برسوبهم لدى أول امتحان ديني فلسفي.

لذا فقد رفض ابن تومرت استكمال دراسته على يد علماء الأندلس ليتوجه قبل المشرق الإسلامي، مغيّراً خطه الفكري عن طريق طلب العلم على يد أكابر علماء المشرق ومن الأصول دون الفروع، حيث تنقل بين

البيان المغرب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1983م ، ج4، ص 68، الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، 1986م ،ج4، ص 70.

[5] - محمد عبدالله عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1989م، ص 160.

عواصمه الثلاث (بغداد، مكة، القاهرة) أعانه على ذلك ذكاؤه ومثابرته وهمته العلية [6]، فأفاد من هذه الرحلة علماً غزيرا وبالأخص في مجال العلوم الفلسفية والعقائدية.

وبنفس خط الرحلة يذكر ابن أبي زرع ، عن لقاء الغزالي بتلميذه ابن تومرت حول صحة إحراق كتابه في قرطبة فأجابه بصحة الخبر على مرأى ومسمع من الجميع في قرطبة [7]، الأمر الذي أثار حفيظة الإمام الغزالي فدعا على المرابطين بضياع ملكهم، وهنا يطلب ابن تومرت أن يدعو له الغزالي بأن يتحقق الأمر على يده، فوافق الغزالي على ذلك [8].

هنا يبدأ السند الشرعي، وتبدأ معالم السلطة السياسية بالظهور بحجة الانتقام من دولة المرابطين، ولعل ما يؤكد ذلك أن خط سير رحلة الشاب التومرتي، وتتلمذه على أيدي فقهاء العلوم العقلية واللسانية، تنبأ بطموح سياسي لقلب نظام الحكم المرابطي، والإطاحة بالوحدة المرابطية الهشة القائمة أساساً على العصبية القبلية، ولهذا كان لابد من إعداد العدة وتأليب العامة من المغاربة ضد المرابطين، ولا يتم ذلك إلا من خلال السيطرة على الإذاعات الإعلامية (المساجد، حلقات الدروس)، لإحداث خلخلة سياسية، ورجة اجتماعية في الحكم.

---

[6] - المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ضبطه وصححه وعلق على حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعد العريان ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط7، 2001م ص 179، ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق : إحسان عباس دار صادر، بيروت، 1988م، ج5، ص46

[7] - عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل عصر الموحدين، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1988م، ص 38.

[8] - ابن ابي زرع: الأنيس المطرب، ص174.

مرتكزات الدعوة التومرتية:

أ- العصبية القبلية:

ألمح ابن خلدون في حديثه حول تطور مفهوم الدولة إلى القاعدة الاجتماعية، التي ارتكزت عليها السلطة في المجتمعات السياسية، وتحديد الأنساق العامة للفعل الاجتماعي والسياسي [9]، وهو ما تؤكده المقاربات لدراسة حركة ابن تومرت، التي تمحورت في بدايتها العصبية حول إبراز دور قبيلة مصمودة كبربر حضر كان لهم شأو في تاريخ الفتوحات المغربية والأندلسية، وإظهار المرابطين كبربر بدو، وبالتالي إظهار عصبة منظمة متضامنة فيما بينها وفق رابطة العصبية القبلية هدفها إسقاط الحكم المرابطي، ولملمة الشتات لقبائل الموحدين الحضرية ، وفق رابطة العصبية القبلية [10].

وهو ما أشار إليه الجابري عندما عرف العصبية عند ابن خلدون : بكونها رابطة اجتماعية سيكولوجية شعورية ولا شعورية معاً تربط أفراد جماعة ما قائمة على القرابة ربطاً مستمراً يبرز ويشتد عندما يكون هناك خطر يهدد أولئك الأفراد كأفراد أو جماعة [11].

[9] - ابن خلدون: المقدمة، ج1، ص140-151.
[10] - انظر محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون العصبية والدولة، بيروت، دار الطليعة، ط3، 1982م، ص 245.
[11] - الجابري: فكر ابن خلدون، ص254.

ويظهر أن ابن تومرت قد استغل عصبية قبائل مصمودة، ضد قبائل المرابطين الصنهاجية، حيث تعود العداوة بين هذه القبائل إلى زمن بعيد فاختلاف أنماط الحياة الاجتماعية والاقتصادية كان مجالاً لصراعات عديدة؛ فالمصامدة قبائل عرفت نمط حياة الاستقرار ومزاولة الزراعة، بينما صنهاجة المرابطين تعتمد الرعي وتربية الماشية والإبل[12]، ولا شك أن أقوى الأسباب تجلت في حشد الرأي العام لإظهار الفارق الاجتماعي بين تلك القبائل، فالملاحظ من خلال المراكشي المعاصر للأحداث التاريخية [13]، إنه لا أثر لوجود دليل على الشعور بالانقلاب على السلطة الحاكمة اجتماعياً أو اقتصادياً قد ظهر عند المصامدة قبل عودة ابن تومرت خلال القرن 6هـ/12م، وفق أسلوبه الإعلامي الجديد، في محاولة لجمع الأتباع والتمهيد لثورة على المرابطين، وهو ما أكده ابن خلدون لدى حديثه أن الأجيال الأعرق قادرة على التغلب على سواها في القوة والعصبية [14].

ب- العصبية الدينية:

حسب رأي ابن خلدون وهو الخبير بشؤون المجتمعات وتطورها،"العصبية الدينية" الشرط الثاني لضمان النقلة النوعية من التطور القبلي إلى الملك [15].

[12] - عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988م ص 36

[13] - المراكشي: المعجب، ص191.

[14] - ابن خلدون: مقدمة ، ص 184-185.

[15] - ابن خلدون: مقدمة: ص 207-208.

نظراً لكون الدعوة الدينية تجد صداها العميق في العناصر البدوية وبخاصة عندما يتعلق الأمر بالرجوع إلى الأصول الاجتماعية في المعاش [16]، وهي إحدى الدعائيات الايديولوجية التي انطلق منها ابن تومرت لاستقطاب قبائل مصمودة وتحفيزها على التغيير، مستنداً في ذلك إلى رسالة أبي حامد الغزالي، ودعوته في السعي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ناهيك عن إدعائه بالنبوءة وأنه المهدي المنتظر، محاولا تقديم الغطاء اللازم وإخفاء دوافعه الكامنة لإحداث انقلاب في الدولة المغربية القروسطية، وتغيير الموروث الاجتماعي الذي لا يتأتى إلا بتقويض دول وإنشاء دول أخرى.

فماهي الوسائل الإعلامية التي اتبعها ابن تومرت لإحداث ثورة سياسية ومذهبية، أدت لحدوث تحولات تاريخية في مركزية دول الغرب الإسلامي.

1- تحفيز مشاعر الخوف والذعر وتعبئة الرأي العام:

ينبأ الواقع التاريخي للحقبة المدروسة بخوف الأندلسيين من بذوغ حروب الاسترداد الاسبانية، التي راحت تتجمع وتعد عدتها للسيطرة على الأندلس والانتقام من المرابطين بعد معركة الزلاقة سنة 479هـ/1086م[17]، فضلاً عن تذمرهم من حالة الإسراف التي وصل إليها المرابطون، وانسياقهم

[16] - للاستزادة أنظر: ابراهيم القادري بوتشيش: تاريخ الغرب الإسلامي قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة ، بيروت، ط1، 1994م، ص 21-27.

[17] - عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ، ص 34-36.

وراء البذخ والترف، مما ساهم بتمرير فكرة إلى عقول تلك المجتمعات الإسلامية بعدم قدرة حكام الدولة المرابطية على حماية الإسلام؛ وبما أن الإنسان يفقد قدرته على التحليل والتركيز العقلاني حين يخضع لضغوط سيكولوجية ودينية، يمكن حينها ببساطة تمرير كمية من الكذب والمبالغات، عن طريق طرح شعارات واهية غايتها جمع الأتباع، وحشد الجماهير، التي تنساق دون أي مقاومة، الأمر الذي سعى إليه ابن تومرت عندما ركز على انقلاب المرابطين على مبدأهم القائم في "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" وانتقالهم من حالة الزهد والتقشف إلى البذخ والترف، مصوراً المجتمع المرابطي بانفلات أخلاقي واضطراب اجتماعي، منتحلاً ذات المبدأ الذي تخلى عنه المرابطون، بهدف لفت أنظار الناس إلى المُدافع الجديد عن الدين الإسلامي، فضلاً عن تكوين خلايا سرية، ليكونوا بمثابة دعاة لبث أفكاره وشعاراته الجديدة [18].

ظل ابن تومرت مدة عشر سنوات (505-515هـ/1111- 1116م) ينتقل بين أقاليم ومدن المغرب الأقصى، لعرض دعوته على الناس ونشر أفكاره بينهم، فكثر أنصاره ومؤيدوه وذاع صيته بينهم وتعارف الناس به [19]. ولما بلغ صيته الإعلامي الكثير، استدعاه السلطان علي بن يوسف وسأله عن مبتغاه فأجاب ابن تومرت بأنه يطلب الآخرة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وأن هذه مسؤولية الحاكم قبل غيره، وهذا يؤكد الشهرة الإعلامية ، والحشد الجماهيري الواسع لدعائية ابن تومرت، فضلاً عن تقهقر القوة

[18] - حمد بن صالح السجياني: الاتجاه الفكري لدعوة ابن تومرت دراسة تاريخية، أرشيف الإسلام، رقم التسجيل، 83976، الامارات العربية المتحدة، (د.ت)، ص95.

[19] -ابن أبي زرع: الأنيس، ص 174.

المرابطية وخشية الناس على ضياع ملكهم جراء الظهور الإسباني [20].. وإلا فكيف يتجرأ ابن تومرت على التمادي في حضرة الأمير المرابطي [21].

كما أشار ابن تومرت إلى ابتعاد فقهاء المرابطين عن تعاليم الإسلام، حيث اتخذ من تدخل النساء في أمور الحكم ذريعة لمهاجمة المرابطين، فقد وصف المراكشي ذلك بقوله: "واستولت النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير، وقاطع سبيل، وصاحب خمر وماخور" [22].

تتابع المصادر التاريخية أنه لدى عودة ابن تومرت من المشرق، وتشبعه بالأفكار الثورية ولقاءاته من قادة المرابطين، وما ناله من إعجاب شعبي ، وتعبئة الرأي العام بأفكاره الفلسفية المستنيرة [23]، ارتأى الانتقال إلى مسقط رأسه ببلاد السوس، حيث نزل على قومه وقبيلته مصمودة سنة 515هـ/1116م، بمعنى وجود بيئة حاضنة لابن تومرت، ويعود الانتقال **لأمرين:**

[20] - الزركشي: أخبار الدولتين، ص 5، ابن خلدون: العبر: ج6، ص 228.

[21] - حسن علي حسن: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1980م، ص 453-460.

[22] - المراكشي: المعجب، ص 177.

[23] - نقصد بالأفكار المستنيرة العلوم العقلية التي تعلمها ابن تومرت والتي تطالب الإنسان بإعمال العقل والتفكير الصحيح دون الإنقياد وراء أفكار وآراء فقهاء السلطان، علماً أن الدولة المرابطية كانت تحارب العلوم الفلسفية والعقلية، لذا أراد ابن تومرت أن يستقطب الأتباع حوله من خلال بث الأفكار الرصينة التي تعلمها في المشرق، ليتمكن فيما بعد من إيصال أي معلومة يريدها والتي تهدف لتشويه الحقائق، وتلبية رغبته في الزعامة السياسية.

الأول:

ضمان الحماية اللازمة لدعوته خشية من إعلام فقهاء المرابطين الذين وصفوه بمخالفة معتقدات أهل السنة، والجماعة، وضرورة معاقبته من قبل الأمير المرابطي، سداً للذريعة ودرءاً للفتنة [24].

الثاني:

تأسيس أول إذاعة مرئية ومسموعة، وهي عبارة عن مسجد يجتمع به تلاميذه وزعماء قبيلته لاصطناع الأنصار وبث الأفكار، عن طريق حلقات دروس منظمة، حيث عزم ابن تومرت في بناء مجتمعه الجديد في مستوى التصور العقيدي وأيضاً الممارسة الاجتماعية، لكن الواقع ينبأ أنه اصطدم بعدة عراقيل داخل البيئة السوسيولوجية البربرية، ولهذا فقد راعى المعطيات المحلية، ووظف اللغة كأداة ووسيلة لإيصال رسائله وتعليماته[25]، فألف كتاب سماه التوحيد بـ اللسان البربري، قسمه إلى سبعة أحزاب على عدد أيام الأسبوع، ويحتوي هذا الكتاب على أفكار وأسس عقيدة ودعوة ابن تومرت، وعدّ من لا يحفظه كافر [26].

[24] - المراكشي: المعجب، ص187.

[25] - مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد، الدار البيضاء، ط1، 1979م ص 109-110.

[26] - ابن أبي زرع: الأنيس ، ص 177.

ولما لاقت دعوة ابن تومرت قبولا في أوساط الهرغيين [27]، تطلع إلى توسيع إطارها المكاني فاختار جماعة من أصحابه كانوا بمثابة مراسلين، لنقل الأفكار إلى القبائل القريبة من بلاد السوس بهدف استمالتها للدعوة الموحدية، وحينما اطمأن من تمكن دعوته في قلوب أتباعه ومؤيديه بدأ يعد العدة للمرحلة الثانية [28].

2- تزييف الحقائق التاريخية والدينية:

إضافة لما أسلفناه سابقاً من تحقيق ضربة استباقية، وسبق إعلامي قام به ابن تومرت من خلال لقائه مع الإمام الغزالي؛ و ادعاءه بأخذ الشرعية من علماء المشرق للإطاحة بالدولة المرابطية، وأن هذا الأمر لا يتم إلا على يد محمد بن تومرت، فضلاً عن التزوير التاريخي بنسبه لآل البيت فقد تجرأ ابن تومرت على الله ورسوله، فحرف الأحاديث الصحيحة وأقحم دلالاتها النصية، ليضل الناس ويلتفوا حوله، وحين اطمأن إلى قاعدته الجماهيرية،

[27] - هرغة: قبيلة بربرية من المصامدة من قبائل جبل السوس بالمغرب الأقصى، وتنسب هرغة إلى الحسن بن علي. الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط، 15، 2002م، ج6، ص 229.

[28] - ابن أبي زرع: الأنيس، ص 176. المراكشي: المعجب، ص 245.

وحسن الولاء، دعا الناس إلى مبايعته إماماً وكان ذلك في الخامس عشر من شهر رمضان سنة 515هـ/1116م [29].

ويمكن أن نعد هذا اليوم، الفاصل في تاريخ الحركة التومرتية والمغرب الإسلامي، فقد ارتدى ابن تومرت الثوب الروحي الذي اتشح به لتأييد شرعية إمامته وقدسيتها، لتطبيق مشروعه السياسي وفق أهوائه ومصالحه الشخصية.

جاءت مبايعة ابن تومرت إماماً للموحدين قرب مراكش "عاصمة المرابطين"، دون تصدٍ ومقاومة من قبل حكام المرابطين، بل ودون إحساس بالخطر الداهم قرب عاصمتهم، مما يدل أن ابن تومرت لم يجرؤ على إعلان ذلك الشطط في دعوته إلا بعد أن وثق من ولاء عامة الناس له اللذين أقبلوا على دعوته وتفانوا في خدمته؛ لاعتقادهم أنه المهدي المنتظر دون أي تفكير بتكذيب هذا الزيف الإعلامي المقيت.

ولكي يوفر مزيداً من الدعم اللوجستي لدعوته، ولتوسيع قاعدته الشعبية خاطب القبائل القريبة منه للدخول في طاعته فكان له ما أراد[30].

من ناحية ثانية سلك طريق التحصين العسكري إذ غادر جبل ايجليز[31] في بلاد السوس سنة 518هـ/1118م، إلى قرية تينملل ببلاد هرغة،

[29] - ابن أبي زرع: الأنيس، ص 176.

[30] - ابن خلدون: العبر، ج6،ص 228

[31] - ايجليز: جبل صغير يقع بالقرب من مدينة مراكش، يتميز بحصانة موقعه، وأحجاره الصلبة التي استخدمت في بناء مراكش عاصمة المرابطين . الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت ط2، 1984م، ص 540.

نظراً لما تتمتع به من قوة ومناعة، وهو ما يصفه ابن القطان بقوله: "يَسدُّ خَللها أقل عصبة من الناس" [32].

أصبحت تينملل عاصمة للقوة الموحدية الناشئة، فقد قسم أراضيها وديارها على الموالين والمقربين، وبنى مسجداً وداراً له بينهم [33].

وبدأ بوضع أسس الدولة الموحدية "الإدارية والعسكرية"، وتوزيع مسؤوليات الدولة ووظائفها على أصحابه الموحدين، يذكر المراكشي أن ابن تومرت بعد أن كثر لديه المؤيدون والأنصار "سماهم المؤمنين"، وفرض عليهم نظاماً تربوياً وتعليمياً دقيقاً من خلال إلزامهم بحضور حلقات الدروس والتعليم، ممارساً بذلك نوعاً من التكريس الفكري والولاء الأوحد للإمام المهدي، وقال لهم "ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم وأنتم العصابة المعنيون بقوله عليه الصلاة والسلام لاتزال طائفة من المغرب ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله... فزادت فتنة القوم به وأظهروا له الشدة" [34].

بالمقابل قام بحركة عرفت بالتمييز قتل فيها العديد من أنصاره الذين لا يشك بولائهم، ممارساً نوعا من البلطجة الإعلامية بحجة الخيانة.

[32] - ابن القطان: نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ، نشره محمود علي مكي، طبعة تطوان، المطبعة المهدية، المهدية، 1987م ، ص75.

[33] - ابن القطان: نظم الجمان، ص 76.

[34] - المراكشي: المعجب، ص276-277.

يمكن القول: تمكن ابن تومرت من خلال تحريف مجموعة من النصوص الدينية بما يخدم هواه، وهوى المؤمنين "أتباعه"، من خداع العامة فأضحت قاعدته الشعبية التي تدين له بالولاء المطلق والمستعدة لبذل الغالي والرخيص لخدمة مهديّها المنتظر، فعدّوه الإمام ومحيي علوم الدين المبعوث لإنقاذ البشرية من خطر المرابطين المجسمين مالئ الدنيا عدلا وخيراً [35].

3- ضرب الرموز "الفقهاء":

من أخطر الوسائل الإعلامية، كونها تتمثل في صياغة صورة ذهنية سلبية لدى الرأي العام تجاه أشخاص وتيارات معينة عبر تصويرها على أنها شخصيات وتيارات هدّامة تهدد الوحدة الوطنية "دول المغرب المركزية"، وأمن البلاد "الخطر الاسباني"، وأنها خطر على الدولة، ويرى نفسه - الدّاعي- أنه المصلح الوحيد، والمحافظ على مصالح البلاد والعباد.

أولى المرابطون عناية كبيرة لفقهاء دولتهم، حتى أن الأمير المرابطي لم يكن يصدر أمراً إلا بعد استشارتهم ولما كان هؤلاء صمام الأمان وركن الدولة المرابطية دينياً؛ فقد ركز ابن تومرت المتفتح عقلياً ، والعائد من المشرق المتشبع بعلم الكلام والمناظرة، المطلع على أمهات مصادر الفلسفة والفقه الإسلامي على ضرب فقهاء المرابطين، وذلك لإظهارهم أمام العامة بعجزهم الديني و انفلاتهم وراء أهوائهم ومصالحهم الشخصية، فأينما كان يمر ابن تومرت يكسر بعصاه متاجر بيع الخمور، ويلقي خطباً ومناظرات مع فقهاء المدن التي كان يزورها.

[35] - المراكشي: المعجب، ص 278.

كثيراً ما أسفرت تلك المناظرات عن تفوقه متصدياً بذلك لهالتهم الايديولوجية الهشة [36]، فكان من المنطقي أن تحدث هذه الدعوة صدىً واسعاً في أوساط أهل المغرب نظراً لما كان يميزها من دعوة للتصادم مع الأنظمة الحاكمة، والاضطرابات التي أحدثتها في الأماكن التي نزل بها، فما لبثت أن وصلت أخباره إلى مسامع الأمير المرابطي علي بن يوسف، الذي استدعاه وأجرى مناظرة بينه وبين فقهاء الدولة المرابطية، ولكون ابن تومرت يدرك طبيعة التكوين السياسي والايديولوجي للدولة المرابطية، فضلا عن سطحية فكر فقهائها [37]،القائم على التسطيح والظاهرية والقبول باليسر من الفكر الديني، ومحاربة علم الكلام والفلسفة، والأديان والمذاهب المقارنة، وبما أن المرابطين خرجوا عن دعوتهم الشرعية الأولى، لذا تمكن ابن تومرت من هزيمة فقهاء الأمير المرابطي، الأمر الذي ساهم في توجيه ضربة إلى بنية الرمز الديني المرابطي، لمحاولة تأزيمه وإظهار عجزه وركوده [38].

فتمكن من تحقيق أكبر هزة روحية في الدولة المرابطية، لكون هذا النمط من الهجوم الإعلامي لا يترك أي فرصة من أجل مناقشة الأفكار أو البرامج أو الانجازات، فتمحى هوية الأفكار بالتبعية عبر تشويه الصورة القدسية لأولئك الأشخاص الذين يعبرون عنها. بمعنى أن ابن تومرت قد نجح باستمالة العامة عندما ضرب فقهاء الدولة المرابطية اللذين هم رموزها المقدسة دينياً، عبر إظهار عجزهم العلمي، وتبيان انفلاتهم الأخلاقي في أواخر عصر الدولة المرابطية من خلال إقامة حفلات الرقص والطرب،

[36] - ابن أبي زرع: الأنيس، ص 174-175.

[37] - La Roul, Abdellah,P.161-162.

[38] - للاستزادة، ابن خلدون، مقدمة، ص67.

والخلاعة والمجون [39]، والتي أنكرها ابن تومرت عليهم، كون الدعوة المرابطية قامت ضد تلك الأفكار، بمعنى انقلاب المرابطين على مبدأهم القائم على "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" [40].

في وقت كان الناس فيه بحاجة إلى مخلص من تفشي الجور والفواحش وإلى منقذ للأندلس جراء ظهور الخطر الاسباني بعد تضعضع القوة المرابطية وانحدارها. فجاء التركيز على قوة الخصم بإظهار عجزه الديني وانسياقه وراء أهوائه وملذاته.

4- سياسة ابن تومرت في تعيين الخواص

سعى ابن تومرت إلى تركيز سياسته الفكرية القائمة صراحة على الزعامة السياسية، حيث وظف مرتكزاته وأفكاره من خلال تشكيلات إدارية جمع فيها مريديه والأخص منهم، فأعطاهم المال والسلطة، والنفوذ، إذ أتاحت هذه التنظيمات تلقينا مذهبيا وسياسيا مكثفا للقبائل والأتباع والخاص منهم. واتضحت بواسطتها الأهداف السياسية للحركة التومرتية وهي الإطاحة بالحكم المرابطي.

[39] - سببه بعض الفقهاء والقضاة من ذوي النفوس المريضة، فشكى الناس من ظلمهم وفهمهم وكثرة مطالبهم وغراماتهم، وانقيادهم وراء أهوائهم وملذاتهم الشخصية. أنظر : محمود علي مكي: وثائق تاريخية جديدة من عصر المرابطين، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 1554م، وثيقة 4، ص 172-173.

[40] - عصمت دندش: الأندلس في نهاية المرابطين، ص 35-36.

علاوة على تمتعه بفهم دقيق للرجال وقدرة على السيطرة عليهم وفق ما عساه يفيده في تحقيق أغراضه السياسية وأطماعه التوسعية 41، وحتى يتمكن من تطييع العامة والخاصة، ضمن المنطوق السياسي و الاجتماعي، كان لا بد له من اصطناع الخواص من "حزب التوحيد" 42، أولئك الذين لا يتوانون أبداً عن تنفيذ ما يريد، وبنفس السياق لهم الحق دون غيرهم في امتلاك زمام الزعامة، لذا أنشأ مجالساً إدارية خاصة به (أهل العشرة، أهل الجماعة، أهل الخمسين) 43، أسماهم ملح الأرض، وعدَّ كل من يمشي على الأرض ملكاً لهم، فلا حسيب ولا رقيب على هؤلاء.

كان على رأسهم أهل العشرة، اللذين تميزوا بالعلم والقدرة القيادية، وبالبذل والتضحية، بمعنى أن اختيارهم كان نتيجة فحص وتدقيق تام، وذلك

41 - اتخذ ابن عبدالله العباسي مثل ابن تومرت في معرض حديثه عن الزهاد والمغالطين أنه ينبغي للملك الخلاص منهم كونهم أهل فتنة وفرقة ويسعون للفساد وما تلك الادعاءات إلا زيف هدفها تقويض أركان الدولة وإثارة الفتنة. الحسين بن عبدالله العباسي: آثار الأول في ترتيب الدول، مطبعة بولاق ، مصر ، 1295هـ، ص50.

42 - ابن تومرت: كتاب أعز ما يطلب ، تحقيق: عمار الطالبي ، المؤسسة الوطنية للكتاب، طبعة الجزائر،1985م ،ص 267،259.

43 - عز الدين عمر موسى: الموحدون في الغرب الإسلامي، تنظيماتهم ونظمهم، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط1، 1991م ، ص 36.

وفق عمل تنظيمي يتم من خلاله انتقاء الصفوة الحزبية واستخلاصهم لنفسه ، ويصف المراكشي هؤلاء بقوله: "ممن استصلح عقولهم"44.

و جاء تسييس الخواص، من خلال العطاءات والامتيازات والاقطاعات، فضلا عن السطلة العالية التي تميزوا بها دون سواهم، لقبول أي مهمة توكل إليهم [45].

وتبعًا لهذا التكفير السابق لغير الموحدين استحلَّ محمد بن تومرت دماء المرابطين؛ ومِنْ ثَمَّ فقد أمر بالخروج عليهم وقتلهم، وأنه ليس هناك إثم في ذلك؛ بل إن في قتلهم إحرازًا لثواب عظيم [46]، وهنا يَبُرز أحد أخلاق محمد بن تومرت فقد كان متساهلاً في الدماء، وهي خاصية من خصائص الخوارج، الذين تَعَلَّم على أيدي بعضهم.

ولنا أن نتخيَّل مثل هذا الأمر في حقِّ المرابطين، الذين فتحوا البلاد، وأقاموا صرح الإسلام في بلاد المغرب والأندلس لسنوات وسنوات، الآن وبعد

[44] - المراكشي: المعجب، ص 188.
[45] - البيذق : أخبار المهدي بت تومرت، دار المنصور، الرباط، 1971م، ص 35.
[46] - المراكشي: المعجب، ص 260.

ظهور بعض المنكرات في بلادهم، وبعد انشغالهم بالجهاد عن التعليم، أصبحوا يُكَفَّرون وتُحَلُّ دماؤهم، ويُقَاتَلون من قِبَلِ جماعة الموحِّدِين، ذلك الاسم (الموحِّدين) الذي يُشير بقوَّة إلى أن غيرهم كفار وليسوا بموحدين أو مسلمين.

وقد استباح في سبيل تحقيق حلمه السياسي ، الدماء والأرواح والأموال، وكانت غايته تلك مبرِّرَة –من وجهة نظره– لكل وسيلة، فكان لا يتردَّد في قتل مَنْ يشكُّ في إيمانه بما يدَّعيه من مبادئ، حتى ولو كان من أتباعه؛ كان محمد بن تومرت في جماعته الجديدة يقتل العشرات من المخالفين له، حتى من فرقته وجماعته (الموحدين)، فالذي يُخَالِفُه في الرأي ليس له من دواء إلاَّ القتل، وهو أمر في غاية الغرابة؛ نظرًا لما عنده من العلم الغزير، وأغرب منه كان ادعاؤه بعض الخوارق [47]، وأنه هو المهدي المنتظر! حيث قام ابن تومرت بما سمِّي التمييز؛ أي: تمييز أتباعه الصادقين من المداهنين والمنافقين والمخالفين، فيقتلهم على الفور ليظلَّ صَفُّه قويًّا 48. **يذكر ابن الأثير أن المهدي نادى في أهل جبل إيكجان بالحضور ، فحضروا للتمييز، فكان الونشريشي – أحد أهم الخواص عند**

[47] - من ذلك أثناء غزوته الثانية لأراضي المرابطين، يذكر أنصاره وخواصه أن المهدي تمكن من طرد جيش المرابطين رغم كثرة عدده بـ "تراب رماها في وجوههم فانعزموا وتركوا الخيل والبغال الذخر والسلاح". البيذق: أخبار المهدي، ص 35.

[48] - وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج6، ص 228.

المهدي ابن تومرت– " يعمد إلى الرجل الذي يخاف ناحيته، فيقول: هذا من أهل النار. فيُلْقَى من الجبل مقتولاً، وإلى الشاب الغرِّ ومَنْ لا يخشى، فيقول: هذا من أهل الجنة. فيُتْرَك على يمينه، فكان عدة القتلى سبعين ألفًا، فلما فرغ من ذلك أَمِنَ على نفسه وأصحابه " 49.

هذا فِعْلُ ابن تومرت بمَنْ معه، فكيف يكون فعله بالمرابطين؟!

بمعنى أن المهدي لم يتوانى عن أي عمل أو فعل في سبيل تحقيق مصلحته السياسية حتى لو كان فيها تشويه أو تزييف للدين الإسلامي واستحلال الدماء دون مراعاة للعدو أو الحليف.

5- التعتيم الإعلامي:

لم يتورع ابن تومرت من تحويل الأقلية الصارخة سياسياً إلى أقلية ذات تأثير قوي، وذلك بإيصال الخطاب المهدوي السياسي إلى ذروته، حيث يتسع نطاق المشاركة وحجم وأعداد الفاعلين، غير مبال باستخدام أي لغة مبتذلة، أو خطاب مسموم لخداع العامة، وصرف الأنظار عن المشاكل والأزمات التي تعصف بهم، مادام هدفه توسعة الذات المتورمة التي تصور أنهم أنبياء أو زعماء شعبيون.

49 - ابن الأثير: الكامل في التاريخ ،تحقيق: أبو الفداء عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م، ج 9198-199.

عمد ابن تومرت إلى التأثير بوجه خاص في أغمار الناس وجُهّالهم، وذلك حتى يسهل قيادهم [50]، فبعد أن ضمن المؤيدين له [51]، بدأ يلجأ إلى الحيلة والخداع، ومن ذلك حين اتفق مع أحد تلاميذه وهو عبدالله الونشريسي، وكان على علم ومعرفة فصيحاً في لغة أهل العرب والمغرب [52]، على إظهار العجز والعمى والجهل أمام الأتباع والمريدين، ثم يظهر عكس ذلك في الوقت المناسب الذي يختاره المهدي، وجاءت اللحظة المناسبة حين جمع المهدي القبائل، وأخبرهم بحال الونشريسي التي لمسوها بأعينهم وهي عدم القدرة على الكلام مع الجهل التام، ثم حدوث المعجزة بأن أصبح فصيحاً بالغاً عالماً بشؤون القرآن، وهنا يظهر الونشريسي ويؤكد ما قاله الإمام [53]. وبذلك

[50] - رُويت عنه كثير من الأخبار التي احتال فيها؛ حتى ظهر وكأنه يعلم الغيب، ولا نشك أن له عيونًا وأتباعًا، كما لا شك في أنه شخصية قوية ذات بصر وخبرة وفراسة، يروي المراكشي واقعة منها فيقول: «أخبرني مَنْ رآه -ممن أثق إليه- يضرب الناسَ على الخمر بالأكمام والنعال وعسب النخل؛ متشبّهًا في ذلك بالصحابة. ولقد أخبرني بعض مَنْ شهده وقد أتى برجل سكران، فأمر بحدِّه، فقال: رجلٌ من وجوه أصحابه يُسَمَّى يوسف بن سليمان: لو شدَّدْنَا عليه حتى يُخبرنا من أين شربها لنَحْسم هذه العلةَ من أصلها. فأَعْرَض عنه، ثم أعاد عليه الحديث، فأعرض عنه، فلما كان في الثالثة قال له: أرأيت لو قال لنا: شربتُها في دار يوسف بن سليمان. ما نحن صانعون؟ فاستحيا الرجل وسكت، ثم كُشف على الأمر، فإذا عبيدُ ذلك الرجل سقَوه، فكان هذا من جملة ما زادهم به فتنة وتعظيمًا، إلى أشياءَ كان يُخبر بها فتقع كما يُخبر، ولم يزل كذلك وأحوالُه صالحة، وأصحابه ظاهرون، وأحوال المرابطين المذكورين تَخْتَلُّ، وانتقاض دولتهم يتزيد، إلى أن تُوُفِّيَ ابن تومرت... بعد أن أسس الأمور، وأحكم التدبير، ورسم لهم ما هم فاعلوه» .

[51]- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق : إحسان عباس دار صادر، بيروت، 1988م ، ج4، ص142. الناصري: الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء،1954- 1955م ج2، 139.

[52] - ابن خلكان: وفيات، ج4، ص139.

[53] - ابن خلكان: وفيات، ج4، ص 139، 143 – 144.

يسيطر ابن تومرت على القلوب باستخدام خطاب خدّاع أصاب فيه عقول الناس وأهواءهم.

يمكن للقارئ أن يستنبط من النصوص المصدرية صدق النظرية الميكيافيلية "الغاية تبرر الوسيلة". ومن ذلك إذا ما حاول بعض أتباع المهدي التشكك في سلطته السياسية ودعوته الدينية، قضى عليهم مستغلا بذلك البشير الونشريسي، وقد صور العمري ذلك بقوله: "فكان الونشريسي يعمد إلى الرجل فيقول هذا من أهل الجنة فيترك عن يمينه، وهذا من أهل النار... فكان عدد القتلى سبعين ألفاً" [54]. ولعل هذه الحادثة تنبأ بقوة الخطاب الذي أعلنه المهدي وتبناه أصحابه.

ويبدو ان ابن تومرت لم يدخر وسيلة إلا واستغلها مع ما أوتي من ذكاء ومهارة إضافة إلى اختياره للسذج تبعاً له، إذ تشير المصادر التاريخية أن المهدي حتى في أعتى الظروف التي كان يمر بها لم يدّخر أيّ وسيلة دعائية أو حيل بلطجية إلا واستخدمها للسيطرة على عقول الناس، حيث يذكر ابن ابي زرع [55]، إنه بعد موقعة البحيرة التي خسر فيها المهدي أمام المرابطين أخذ قوماً من أتباعه اللذين بقوا بعد تلك الموقعة ودفنهم أحياءً، وجعل لكل واحد منهم متنفساً في قبره، وقال لهم إذا سُئلتم فقولوا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً وأزيد من ذلك، ولما حضر المهدي ومن معه وسأل اللذين

[54] - العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1988م ، ق2،ج1، ص 266 – 267.
[55] - ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص 179.

في القبور أجابوه :"وجدنا عند الله تعالى مالا عين رأت، ولا أذن سمعن ولا خطر على قلب بشر".

مثل هذه الحادثة توضح الحملة الإعلامية الدعائية المُشابة بالخطاب المضلل الذي استقاه المهدي عبر أدلة مرئية، وارتباطات غير منطقية لتحويل الخسارة الحربية التي كادت تَئِدُ دعوته إلى نصر ديني وشعبوي.

6- الشَّعبويَّة:

نقصد بها إدعاء التوافق مع الشعب للسلطة ووصم الخصوم بمعادة الشعب. بعدما تأكد للمهدي من توافق ديني وسوسيو اجتماعي، بين السلطة والأتباع، وهو مايصفه المراكشي بقوله: "ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر وفتنتهم به تشتد وتعظيمهم له يتأكد، إلى أن بلغوا في ذلك حداً لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه لبادر إلى ذلك من دون إبطاء" [56]. الأمر الذي يؤكد اتحاد القبائل المصمودية مع المشروع التومرتي المتمثل في إسقاط الدولة المرابطية.

شرع المهدي في مرحلته الهجومية العسكرية بتوجيه ضربات للدولة المرابطية في عقر دراها في العاصمة مراكش؛ امتدت ربع قرن انتصر فيها ابن تومرت في كثير من المواقع، وانهزم في مواقع أخرى أبرزها موقعة البحيرة سنة 524هـ/1129م، التي هزّت كيان دعوته الناشئة وكادت أن تطيح بها، ورغم الأثر العميق لتلك الموقعة لكن المهدي استخدم ذكائه

[56] - المراكشي: المعجب، ص 191.

ونباهته لتوظيف الخسارة وتحويلها إلى فوز روحي، ومن ذلك قصة المقابر التي أسلفناها سابقاً.

توفي المهدي ابن تومرت على إثر موقعة البحيرة، لما تركت من آثار نفسية عليه، لكن الواقع يشير أن الدعوة التومرتية المتمثلة بالإسقاط السياسي للدولة المرابطية وإقامة الدولة الموحدية، لم تنتهِ بوفاة مهديّها بل استمر أتباعه من بعده على نفس النهج للإطاحة بالدولة المرابطية، وتمكن تلميذه عبدالمؤمن بن علي "أحد أفراد العشرة"، من إحراز نصر على المرابطين واسقاط دولتهم في المغرب الأقصى سنة 541هـ/ 1147م.

خاتمة:

من كل ما تقدم يمكن القول:

- إن دعوة محمد بن تومرت "المهدي"، قد لاقت صداها في مجتمع المغرب الإسلامي، فقد تمكن المهدي من تقديم معلومات تاريخية إعلامية ملفقة بنبرة

حادّة، حملت في طياتها قيادة مؤهلة للإصلاح الأخلاقي والديني، التي بدأت رياحها تعصف بالأندلس عقب ظهور الخطر الاسباني، وأثبت المهدي نفسه كشخصية قيادية تفوق قوى كل الناس، جعلت منه منزهاً عن الخطايا والذنوب، بل ومعصوماً من الخطأ.

- قدِر ابن تومرت بفضل رحلته العلمية، والمشارب العديدة التي نهلها من العلوم العقلية والنقلية، من تجاوز ظاهر النصوص، وحرفيتها، لتوظيف دعايته السياسية المزيفة، من خلال شيطنة دعوته مستغلا سطحية الفكر الفقهي والعقلي للمرابطين.

- لم يتورع ابن تومرت من تحويل الأقلية الصارخة سياسياً إلى أقلية ذات تأثير قوي، وذلك بإيصال الخطاب المهدوي السياسي إلى ذروته، حيث يتسع نطاق المشاركة وحجم وأعداد الفاعلين، غير مبال باستخدام أي لغة مبتذلة، أو خطاب مسموم لخداع العامة، وصرف الأنظار عن المشاكل والأزمات التي تعصف بهم، مادام هدفه توسعة الذات المتورمة التي تصور أنهم أنبياء أو زعماء شعبيون.

- استطاع المهدي تمرير خطاب سياسي، وديني مقيت من خلال قنواته الإعلامية ، التي تبث تعاطفه الواضح مع العامة، فاستجابوا له والتفوا حوله، مستغلا ضعف ولاة أمر المسلمين ما جعله ينيط بنفسه مسؤولية تغيير السلطة المرابطية.

- أجاد ابن تومرت في لفّ القبائل الحضرية "مصمودة"، حول دعوته، عندما أظهر حدة التمايزات الطبقية بين البدو والحضر، لإظهار هشاشة الوحدة المرابطية.

- عمل ابن تومرت على إيجاد فريق إعلامي قام بتدريبه وإعداده وتنظيمه وفق أهواءه، وتهيئته لخلق إعلام تفاعلي مع الجمهور.

- لجأ الداعية المهدي إلى التشهير والفضيحة، وتلطيخ السمعة للخصوم "الفقهاء"، مستغلا دعائية الحرب النفسية لإضعاف الروح المعنوية لدى جمهور الخصم، فقد حملت خطاباته الإعلامية نبرة عدائية تجاه الانزياح الديني والأخلاقي لفقهاء وأمراء المرابطين، فضلا عن إظهار جو الفساد جرّاء تدخل النساء في أمور الحكم.

رغم أن هذا البحث لم يسعفنا في حلّ حيثيات هذا الموضوع، وإعطائه حقه من النقاش والتحليل، لكنه محاولة لتبيان خطر الفكر التلفيقي والإعلام المضلل في أذهان وسلوك العامة، خاصة عندما يلقى بيئة حاضنة، تكون سبباً في حدوث خلخلة اجتماعية، واضطراب اقتصادي، وهزات سياسية، تنهي عُمر الدول، وتقضّ أمنها واستقرارها، لذا كان لابد من تسليط الضوء لمثل هذه الأبحاث.

المصادر والمراجع

المصادر العربية:

- **ابن الأثير**، علي بن محمد بن عبدالكريم الشيباني الجزري أبو الحسن عزالدين (ت 637هـ) الكامل في التاريخ ،تحقيق: أبو الفداء عبدالله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م.

- **ابن خلدون**، أبو زيد عبد الرحمان بن أبي بكر الحضرمي (ت 808هـ): تاريخ ابن خلدون، المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية 1988م.

- ----------: مقدمة ابن خلدون، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط3، 1427هـ،2006م.

- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت781هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق : إحسان عباس دار صادر، بيروت، 1988م.

- **ابـن تـومرت**، محمـد بـن عبـد الله الهرغـي (ت 524 هــ): كتـاب أعـز مـا يطلــب ، تحقيــق: عمــار الطــالبي ، المؤسســة الوطنيــة للكتــاب، طبعــة الجزائر،1985.

- **ابـن عـذارى** ،أبـو محمـد عبـدالله بـن محمـد المراكشـي (ت 712هــ): البيـان المغرب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1983م.

- **ابـن العمـاد الحنبلـي** (ت 1089هــ): شـذرات الـذهب فـي أخبـار مـن ذهـب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، 1986 ج4، ص 70.
- **الزركشـي**، أبـو عبـد الله محمـد بـن إبـراهيم اللؤلـؤي التونسـي (كـان علـى قيـد الحيـاة سـنة 894 هــ): تـاريخ الـدولتين الموحديـة والحفصـية، طبعـة تـونس، المكتبة العتيقة ، ط1، 1266 هـ .
- **ابن القطان**، أبـو علـي حسـن بـن محمـد بـن عبـد الملـك بـن يحيـى الكتـامي ، (ت 628 هــ) : نظـم الجمـان لترتيـب مـا سـلف مـن أخبـار الزمـان ، نشـره محمود علي مكي، طبعة تطوان، المطبعة المهدية، 1987م.
- **ابـن أبـي زرع**، أبـو الحسـن علـي بـن عبـد الله الفاسـي (ت 726هــ): الأنـيس المطـرب بـروض القرطـاس فـي أخبـار ملـوك المغـرب وتـاريخ مدينـة فـاس، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط. 1972م.
- **البيــذق**، أبــي بكــر بــن علــي الصــنهاجي (559هــ): أخبــار المهــدي بــت تومرت، دار المنصور، الرباط، 1971م.

- **الحسـين بـن عبـدالله العباسـي**، الحسـن بـن عبـدالله بـن محمـد بـن عمـر العباســي (ت النصــف الأول مــن ق8هــ):آثار الأول فــي ترتيــب الــدول، مطبعة بولاق ، مصر ، 1295هـ.

- **الحميـري**، محمـد بـن عبـدالمنعم الحميـري (ت900هــ): الـروض المعطـار فـي خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروتـ ط2، 1984م

- **العمـري**، ابـن فضـل الله العمـري (ت 749هــ): مسـالك الأبصـار فـي ممالـك الأمصـار، تحقيـق مصـطفى أبـو ضـيف أحمـد، مطبعـة النجـاح الجديـدة، الـدار البيضاء، ط1، 1988م.
- **المراكشـي**، محيـي الـدين أبـو محمـد عبـد الواحـد بـن علـي (ت 647هــ): المعجـب فـي تلخـيص أخبـار المغـرب، ضـبطه وصـححه وعلـق علـى حواشـيه

وأنشأ مقدمته محمد سعد العريان ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب، الدار البيضاء، الطبعة السابعة، ، ص 179.

- **مؤلف مجهول** (من أهل الأندلس ق 8هـ): الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد، الدار البيضاء، ط1، 1979م.

- **الناصري**، أبو العباس أحمد بن خالد (ت 1315هـ): الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء،1954- 1955م.

المراجع العربية:

- **ابـراهيم القـادري بوتشـيش**: تـاريخ الغـرب الإسـلامي قـراءات جديـدة فـي بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة ، بيروت، ط1، 1994م.

- **حسـن علـي حسـن**: الحضـارة الإسـلامية فـي المغـرب والأنـدلس عصـر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1980م.

- **خيـر الـدين بـن محمـود الزركلـي الدمشـقي (ت 1396هـ)**: الأعـلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط، 15، 2002م، ج6، ص 229.
- **محمـود علـي مكـي**: وثـائق تاريخيـة جديـدة مـن عصـر المـرابطين، المعهـد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 1554م.

- **حمـد بـن صـالح السـجياني**: الاتجـاه الفكـري لـدعوة ابـن تـومرت دراسـة تاريخيـة، أرشـيف الإسـلام، رقـم التسـجيل، 83976، الامـارات العربيـة المتحدة، (د.ت).
- **عبـدالله العـروي**: مفهـوم التـاريخ الألفـاظ والمـذاهب المفـاهيم والأصـول، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط4، 2005م .

- **عـز الـدين عمـر موسـى**: الموحـدون فـي الغـرب الإسـلامي، تنظيمـاتهم ونظمهم، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط1، 1991م.
- **عصـمت دنـدش**: الأنـدلس فـي نهايـة المـرابطين ومسـتهل الموحـدين عصـر الطوائف الثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988م.
- **محمـد عابـد الجـابري**: فكـر ابـن خلـدون العصـبية والدولـة، دار الطليعـة، بيروت، ط3، 1982م.
- **محمـد عبـدالله عنـان**: عصـر المـرابطين والموحـدين فـي المغـرب والأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1989م.